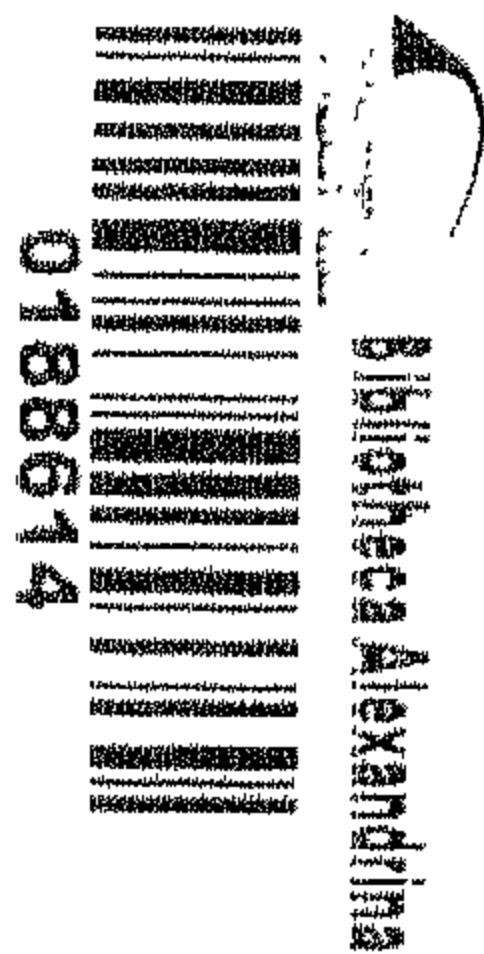


نورائنا والبيان



دکتور حسین فوزی البخاری



اهداءات ١٩٩٨

أ.د. / محمد العزيز برهام

رئيس قسم اللغة العربية الأسبق - الإسكندرية

إِخْتَرْنَا لِلطَّالِبِ

نُورَانَا وَالْمِثَاقُ

بقلم الدكتور حسين فوزي البخار

مصر والثورة

« إن إخلاص الشعب المصرى لقضية الثورة ووضوح الرؤية أمامه ، واستمراره الدائب فى مصارعة جميع أنواع التحديات قد مكنه دون أدنى شك من تحقيق نموذج رائع للثورة الوطنية وهى الاستمرار المعاصر لنضال الإنسان الحر عبر التاريخ من أجل حياة أفضل . طليقة من قيود الاستغلال والتخلف فى جميع صورها المادية والمعنوية . . . »

المباني

كما وصف به « ويلفرد بلنت Wilfrid Blunt » المصريين في كتابه « التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر » أنهم يحفون الثورة « فهم بالرغم من الاضطهاد البشع الذى يودى بهم لا ينددون بالثورة ، وليس ذلك لأنهم يصفون على حكامهم تلك القداسة الخرافية ، بل لأن الثورة ليست من طبائعهم أكثر مما هى من طبائع قطع من الغنم » .

وقد يبدو لدى النظرة العابرة أن ذلك صحيح مما يراه من طيبة المصريين ، تلك الطيبة التى لم تتغير على مر القرون كما يقول « بلنت » .

إلا أن الذى ينفذ إلى سريرة المصريين ويحتلى طبائعهم يراهم بقدر ما فهم من طيبة ووداعة فإن فهم من نوازع الغضب والثورة ما تكشف عنه الأحداث الجسام فحسب ، فهم لا يثرون إلا دفاعاً عن الحمى ودفاعاً عن أعراضهم ومأثوراتهم وتقاليدهم وأعرافهم ، أملاً مادون ذلك فإنه لا يحرك سكونة قلوبهم .

فالمصريون بطبيعتهم شعب محب للسلام ولا يهتم هذا عن خرابة في الطبع أو مذوذ في النفس البشرية التى جبلت على الخير والشر معا ، بل إنه دليل على استواء الطبع وسلامة النفس البشرية ، ولا يهتم أيضاً عما ينسب للشعوب الزراعية أو سكان الوديان السهلة الرحبة من جفوة للثورة والحرب وحب للسلام والمسالمية ، ولكنه دليل على ارتقاء الضمير الإنسانى: هذا الارتقاء الذى يقبع فى اللاشعور ولا يفصح عنه الشعور إلا بالسلوك الذى يبرزه وينم عنه ، فما يندع العين النافذة البصيرة ألوان

من السلوك قد تفصح في اتجاهاتها عن فضائل الحضارة الغربية التي نعيش في ظلالها الآن ، إلا أن هذه الفضائل التي يسفر عنها السلوك الشعوري في الشعوب الغربية ، تطوى في حنايا اللاشعور كل همجية البرابرة الذين سطوا على العالم الروماني وكانوا نواة الشعوب الأوروبية الحديثة .

وليس ارتقاء الضمير الإنساني وليد الصدفة أو وليد الإرادة فالصدفة لا تضيق على الإنسان من التميز ما تحرم منه الآخرون ، والارادة وإن غلبت ظواهر الشعور فانها لا تقهر بواطن اللاشعور ، فما زال اللاشعور يفصح عن نفسه بين الفينة والفينة ويبرز في غفلة من الوعي وفي حالات الصحة والمرض على حد سواء ، وإنما يرتقى الضمير الإنساني من كثرة ما يتعبرس الإنسان بالتجربة فيلو مرها وحلوها ويستبين الحكمة من ثناياها ومن غريزتي التحدى والاستجابة وكلما طالت حياته على الأرض امتدت تجاربه واتسعت خبراته وارتقت حكمته وبما إدراكه .

وكان لمصر من تقادم الزمن عليها بازودها بخبرات لم يتزود منها أي شعب آخر وارتقى فيها الضمير الإنساني ارتقاء لم يسلم إليه غيرها من الشعوب ، وبغدت الحكمة فيها وحيا وإلهاما صادقا أكثر مما هي استقراء عقل قد يصيبه الخطأ ، وأصبح سلوكها الاجتماعي والسياسي سلوكا طبيعيا لا تحفزه عقد النقص أو عقد الاستعلاء إذ خلا ضميرها من كل كبت يرهق بواطن اللاشعور .

فحب السلام فطرة أصيلة عند المصريين ذلك أنهم كما قلنا قد بلغوا أسمى مراتب الارتقاء للضمير الإنساني بحكم تاريخهم الطويل وبحكم ما اجتازوا من خبرات وتجارب خلال هذا التاريخ علمتهم كيف يقدر

الحياة الإنسانية ويجلون وجودها على الأرض فحرصوا عليها وصانوها حتى
في توابيتهم وأرماسهم وارتجوها في الحياة الآخرة .

والحياة لا تقبل القهر ولا ترضى بالاستعباد ، فالقهر والاستعباد قرينا
الموت ولا حياة لحرأبى في ظل الاستعباد ، لذلك كانت الثورة في خلق
المصريين أثرا من آثار حب الحياة وجفوة الموت .

فإذا كانت النزعة إلى السلام نزعة أصيلة لدى المصريين وإذا كانت جفوتهم
للحرب إحدى خصائصهم النفسية وبعض ما يقوم شخصيتهم فإن حبهم للحياة
وإن كان يحملهم على تقديس الحياة حتى امتدت تقديسهم لها إلى عالم ما بعد الموت
فانه هو أيضا ما يحملهم على الثورة دفاعا عن حق الحياة فالقهر والاستعباد
قرينا الموت والفناء في تفكيرهم ، وإيمانهم بعراقة أصولهم وتقاليدهم
وقداسة عقائدهم ومآثوراتهم هو ما يحملهم أيضا على الجمود عليها فلا يرضون
بها بديلا فإذا عرض لها عارض من عدوان أو افتتات على قدابتها كانت
ثورتهم للدفاع عنها تفوق ثورتهم دفاعا عن حق الحياة ويرتخصون الحياة
نفسها لتبقى لهم عقائدهم ومآثوراتهم وتقاليدهم وتبقى لهم الحياة حرة
كريمة .

وبقدر ما يكره المصريون العدوان فإنهم يبذلون في الدفاع عن أنفسهم
كل مرتخص وغال ، فيهبون ذوداً عن حياضهم في ضراوة وبسالة ، وبهذا
جرى تاريخهم على الزمن والاحقاب فنادرا ما نجد حرباً عدوانية
شنتها مصر بل قد لا نجد لها إطلاقاً ، ففي عهد الدولتين القديمة والوسطى
من تاريخها الفرعوني كان كل مجهود مصر الحربي موجها للدفاع عن
جدودها . ولم تكن الحروب الامبراطورية التي قادتها الدولة الحديثة

إلا حروباً دفاعية هي الأخرى ، فعندما قهر أحسن المكسوس وطاردهم إلى الشمال رأى أن تأمين مصر يقتضى مد حدودها الاقليمية إلى ذلك الشمال ولم تكن حروب الأحامسة والرعامسة من بعد إلا توكيدا لنظرية «الهجوم خير وسائل الدفاع» وفي تاريخ مصر الاسلامية نجد أن أعظم ما حققته مصر من انتصارات كان انتصارها في معركة حطين ضد الصليبيين ومعركة عين جالوت ضد التتار ، ولم تكن هاتان المعركتان إلا دفاعاً عن مصر والعالم العربى .

ويقفز بنا التاريخ إلى النصور الحديثة فترى المصريين يقفون للفرنسيين فى كل قرية وفى كل مدينة فى بسالة وضاوة بعد أن قهر نابليون قوات مراد بك وابراهيم بك فى معركة الأهرام ، ثم معركة رشيد ضد القوات الانجليزية الغازية عام ١٨٠٧ فإن الذى كسب النصر فيها لم يكن محمد على ولا قواته بل أهل رشيد أنفسهم ، ويقال إن محمد على قد هرب يومها إلى الصعيد حتى إذا سمع باندحار القوات الإنجليزية أمام أهل رشيد عاد إلى القاهرة واحتلت قواته رشيد تعيث فيها فساداً فكان مآلها أهل رشيد من قوات محمد على أقسى مما لقوه من الإنجليز .

وخين وقع العدوان الثلاثى على مصر وقف أهل بورسعيد يدافعون عنها فى بسالة أذهلت التاريخ وكان قهر العدوان نقطة تحول خطير فى تاريخ مصر .

ومصر فى وقتها لعدوان يقع عليها هي مصر فى ثورتها ضد الدخيل العاصب ، فالدخيل العاصب ليس فى الواقع إلا غريباً معتدياً ، لذلك يتشابه موقف مصر فى ثورتها ضد البغى والظلم الذى يقع عليها من الحاكم

وفي وقتها أمام عدوان أو غزو يقع عليها من الخارج ، فإنها لا تثور على حاكم ما لم تر في هذا الحاكم دخيلاً تفرضه القوة أو يفرضه البغي والسلطان القاهر أو تر منه تنكراً لمأثوراتها وتقاليدها أو عملاً يسلك به مسلك الغرباء في علاقته بناسها أو حكمه لهم .

وقد يكون الحاكم الدخيل ذكياً لماحاً فيدرك من طبائع المصريين ما يكرهه المصري للحاكم الغريب فيتملقهم ويسلك مسيلهم مدغياً الإيمان بمأثوراتهم والتطبع بعاداتهم كما كان من نابليون حين أخذ عبثاً يتقرب من المصريين بادعاء الإسلام وارتداء ثياب العلماء ، ولكن المصري اللماح بما ثوى في أعماقه من خبرات القرون الطوال التي مرت به سرعان ما يدرك مكر الحاكم وزيفه فيدعه في ضلاله ، ويثوب إلى أصالته في كفاح الطاغية الجديد .

وإذا كان نابليون قد قهر مراد بك وإبراهيم بك واستلمهم أربعين قرناً تطل عليه من قمم الأهرامات لبناء امبراطورية الشرق ، فإن الهزيمة التي نالته وقضت على آماله وقوضت طموحه لم تكن معركة النيل كما يسميها الإنجليز أو « أبو قير » البحرية التي حطم فيها نلسون قوات الفرنسيين البحرية وقطع الطريق بينهم وبين الوطن ، وإنما الذي قضى على آماله وقوض طموحه هو مقاومة المصريين له وثورتهم بالفرنسيين في كل مكان نزلوا إليه من القاهرة إلى أعماق الصعيد وبسواحل الاسكندرية بعد أن قضت مدافع نابليون على مشجاعة المماليك .

ولكن إذا كان المصريون من هذا الطراز الثأرين الأهم فكيف

رضوا حكم المماليك ومن بعدهم حكم محمد علي وطغيانه ؟

وتفسر الإجابة على هذا السؤال الخطأ الذي تردى فيه «ويلفرد بلنت» حين نفي عن المصريين طبيعة الثورة وقال عنهم إنهم «ليحبون ملكة إنجلترا أو البابا أو ملك أشتانتي بلهف ومتساو لو أن هؤلاء جاءوهم بنعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار قرش في الجنيه»

ولعل ما وقع فيه «ويلفرد بلنت» من خطأ سلك به المصريون في عداد الشعوب الرعوية التي لا تتعلق بالوطن أو الأرض إلا بمقدار ما يمنحها الوطن المرعى الفضل أو تضيف عليها الأرض الثبت الذي تطعم به ماشيتها ، لعل خطأه أنه لمس عسف الحاكم في مصر ورضاء المصريين عن حكمه أو قعودهم عن الثورة عليه وتناسى أن المصري يدين لحاكمه بالولاء ما عرف أن هذا الحاكم بعض أهله أو عشيرته أو تربطه به أخوة في الوطن أو الدين ، وأن هذا الولاء أصيل في طبعه أصالة تاريخه الذي يمتد إلى عهد أله فيه المصريون الحاكم ورأوا في الفرعون ربا تجسد في صورة بشر ثم جاء العصر الإسلامي فانتقل الولاء إلى الخلافة التي تمثلت أخوة الإسلام الكبرى ، فإن لم يثر المصريون على عسف الفرعون وإن قبلوا حكم الولاة العرب ثم الولاة من الكرد والترك فلأن الفرعون كان الإله المجسد ولأن الوالي كان يحكم باسم الخليفة رمز الإخاء الإسلامي والرباط الديني الوثيق .

ولقد رضى المصريون حكم محمد علي ولم يرضوا حكم نابليون لأن محمد علي قد تولى الحكم بفرمان مهره الخليفة بالرضاء ولأن نابليون كان غازيا غريباً على الوطن وعلى الأمة .

والأخوة الإسلامية تمحو الفروق ونقض على المصية بين الحاكم

والمحكوم فلم يكن المالك برغم أصولهم الغربية غير مصريين مسلمين وحين حكموا مصر لم يدعوا لأنفسهم ميزة عليهم إلا ميزة الحكم واحتراف القتال والاضطلاع بعبء الحرب وكان التمايز فيما بينهم تمايز القوة والزعامة ولم يكن للمصريين دخل فيما يثور بينهم من نزاع أو يجد في صفوفهم من قتال وقد عرفهم الجبرتي باسم « الأمراء المصرية » تمييزاً لهم عن العثمانيين من جركس ودلاة وأرناؤود .

حتى إذا جاء محمد علي أيقظ كوامن العنصرية بين حاشيته وقومه وبين المصريين وجعل من المصريين فريقاً أقل مكانة من رجاله وجنده ؛ وسار بنوه على غرارهم فسودوا العناصر التركية على المصريين وأقطعوهم الأرض والضياح وحرموا منها المصريين ، كما حرموا الجندي المصري من حق الترقى وأمروا عليه الجركسي . فكانت تلك البذرة التي أنبتت ثورة عرابي وأيقظت القومية المصرية التي نادى بها عرابي حين جعل شعار ثورته « مصر للمصريين » ودعى إليها لطفي السيد حين ردد القول مرة أخرى بأن « مصر للمصريين » .

فالمصري لا يثور بحاكمه إلا إذا أحس أن هذا الحاكم دخيل عليه غريب على قوميته وأنه يتنكر لمصر والمصريين ، فإذا أحس المصري هذا التنكر كانت ثورته وكان مقتله للحاكم حافزاً له على الثورة .

ومن هذا الإحساس عرفت ثورة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ طريقها المحدد .

صبر وصمود

على أن روح هذا الشعب لم تستسلم ، وإنما استطاعت
تحت المحن العنيفة أن تخزن طاقات تحفز لإطلاقها في
اللحظة المناسبة . .

الميناء

أخيراً « ويلفريد بانث » كما يخطئ كل غربي يحاول النفوذ إلى طبيعة هذا الشعب المصرى العريق ، فإن لهذا الشعب خصائصه التى يضل فى تفسيرها كل من لا يدرك أن هذه الخصائص تضرب فى أعماق الزمن إلى أبعد عصور التاريخ ، وانها تذهب فى أغوار النفس المصرية إلى المدى الذى ينطق فيه العقل بالإلهام الروح وإحساس الوجدان ويتوارى فيه المعقول والمحسوس أمام صواب الإلهام وقدرة الوجدان على تبين الحقيقة المجردة عارية من دلائل المنطق وحساب العقل ، فقد يبدو أن سلوك هذا الشعب أمام عارض طارئ أو مقدر مما يجفو العقل ويدخل فى حيز اللامعقول ثم يكشف الزمن عن صحة هذا السلوك وأن العقل والتقدير قد ضللا سبيلهما إلى الحقيقة المجردة ، وما من تعليل لذلك أمام العقل فى قصوره أحيانا عن صحة التقدير وتبين الصواب ، إلا أن الإلهام قد غلب العقل وأن الوجدان أصدق حذسا من المحسوس .

وتلك طبيعة لا تواتى كل شعب ، فلأجل أن ينفذ الإنسان إلى ما وراء المعقول واللامعقول وأن يصبح قادراً على استاهام الحقائق فيدركها للوهلة الأولى من غير أن يمر فى مراحل التفكير المختلفة التى يحتاجها العقل الناشئ للوصول إليها ، لابد وأن يكمن فى أعماق اللاشعور لديه من الخبرات والتجارب ما يكفيه التفكير فى التعرف عليها وإدراكها .

وقد مر الشعب المصرى بخبرات الحياة كلها منذ كانت الحياة على ظهر هذا الكوكب الصغير .

وهذه هي الأصالة في تاريخ مصر ، حتى ليدو في نظر كثير من علماء الآثار وبعض الفلاسفة والمؤرخين أن مصر قد انبعثت خلقا كاملا النماء فإن الحياة لم تتغير كثيرا على ضفاف وادي النيل ومع ذلك فقد كانت دائما وفي عهود يقظتها وبعثها خلقا كاملا النماء وهي في يقظتها وبعثها تستوى في أقصر مدة في أتم نمائها وكلها حياة متجددة قوية تبهر العالم وتذهل الحاققين ، وهي في اكتمال حيويتها وتجدها وقوتها عجوز شاب قرناها تظنون القديم ، وترعى الرهيم ، وتعطي التقاليد ما توجب ، وهذا سر قوتها ، فإن الرواسب الكمينية في أعماقها من جلال الماضي وحكمته تتفاعل في عقلها الباطن لتقود خطاها وترشدها وتحدوها إلى الكمال ، فلا تلقى في طريقها تعباً أو نصبا ، فهي دائما على الهدى من طريقها لا تجور ولا تمن ولا تضل بها الخطى ، فتحقق في أقصر وقت من الزمن ما يستوعب الحقب من عمر الشعوب المحدثه الوليدة التي لا تملك من ذخيرة الماضي وحكمته وتجاريه ما رسب في أعماق النفس المصرية على مر الحقب .

وقد يبدو هذا الشعب ما كنا مستكينا ولكنها حكمة الأجيال القابعة في أعماقه هي التي تحمله على الانتظار والتهيو وقد يطول زمن التهيؤ والانتظار حتى يغلب على الظن أنه قد كل مقومات أصالته وشخصيته وكفاحه وأنه استسلم للواقع المرير الذي يعيش فيه وأن لا قيامة له بعد ذلك ، ولكنه الصبر الذي تمثله من تاريخه الطويل فالزمن في حكمه غير الزمن في حكم غيره من الشعوب المحدثه .

وهو في تهيبه وانتظاره يترقب الفرصة المواتية ، فالحياة عنده — كما قلنا — أغلى وأثمن من أن تضيع هباءا إلا لغايات بعيدة يسخر فيها البذل

للمجد والفداء لساعات الرغائب . فإذا وافت الفرصة انبعثت أصالته
قوية فتية سخية بالبذل والفداء ، فما كان للرؤيا العابرة أن تستلهم فورة
هذا الشعب في ٩ مارس ١٩١٩ حين اجتاحت الثورة ضد الاحتلال في يوم
ليلة فانبعثت مصر كلها من أقصى الجنوب إلى أدنى الشمال في ثورة عاصفة
زلزلت قواعد الاحتلال وهزت أعطاف الشرق المتوثب وقوضت عرش
الاستعمار . وما كان للرؤيا العابرة أن تلمح . مقدم ليلة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .
ولكن من عرف هذا الشعب واستلهم التاريخ سير أحداثه في أرضه ،
كان يدرك تماماً قيام ثورة ١٩١٩ ووثبة الأمة ليلة ٢٣ يولية .

فلشد ما تنبعث أصالة هذا الشعب في أخرج ساعات التاريخ حلقة
وظلمة ، انبعثت في موقعة عين جالوت حين وقف المصريون أمام التار
يصدونهم عن حصن الحضارة والعروبة وينقذون بقايا العالم المتحضر من دمار
أكيد نزل من قبل ينغداد فصيرها خرائب وأطلالا .. وإذا اخترنا وقفة
المصريين في عين جالوت ولم نختر وقفهم أمام الهكسوس حين قذفوا بهم إلى
فيافي الشام ، ولم نختر وقفهم في رفح ضد قوات « اثيوكس » الافريقية ،
كما لم نختر وقفهم في حطين أمام قوات الصايبيين المتحالفة ، فلا أن نتأجج
موقعه عين جالوت كانت حدثا باهرا في تاريخ الإنسانية حين أنقذت
الحضارة والتدين من دمار محقق .

ولعل السر في هذه الأصالة هو قدرة مصر على المحافظة والتجديد
في وقت واحد ، فليس لأمة من أمم الأرض على الإطلاق مثل هذه
القدرة على المحافظة والتجديد في آن واحد ، ولعلها السر أيضاً في خلودها
واستمرارها وتجدد شبابها على الدوام ، ولعلها تفسر لنا كذلك كيف
هضمت أمواج النازجين إليها وتمثلتهم خلقا مصريا كايلا ، فان لمصر

معدة قوية — كما يقولون — فعدا كل وافد على مصر ما كولا لا آ كلا
وقيل إن مصر « مقبرة الغزاة » .

والصمود بعض مظاهر الثورة ، فالثورة ليست على الدوام عملا
من أعمال العنف ، فالعنف ليس إلّا لونا من ألوان التعبير عن الثورة ،
فهناك الثورة السلبية ، كما كانت ثورة الهند التي قادها غاندى ضد
الاستعمار الانجليزى ، وهناك الثورة الإيجابية كثورة كاموزا ضد
الهكسوس وثورة الفرنسيين ضد الملكية والاقطاع فى فرنسا ، وثورة
الولايات الأمريكية ضد التاج البريطانى وكما ثورات تنسم بالعنف وانتهت
بالتقال أو العمليات الحربية التي يخوضها الثوار لتحقيق مطالبهم .

وسواء كانت الثورة سلبية أم إيجابية فإن انتصارها يتمثل فى صمودها
وقدرتها على الاستمرار فحركة المقاومة السلبية التي قادها غاندى فى الهند
ما كان لها أن تبقى وتستمر وتحقق غايتها ما لم تصمد هذا الصمود الذى قاد
حركة غاندى إلى النصر وحرب الاستقلال الأمريكية ما كان لها أن تحقق
غايتها ما لم تصمد قوات التحرير فى الحرب التي شنتها بريطانيا للقضاء على
الثوار الأمريكين .

وقد خاضت مصر كلا الثورتين : السلبية والإيجابية ، وكان الهامها
هو الذى يهدها إلى أى السيلين تسلك ليتحقق قصدها وتثمر حركتها ،
فإنها تلوذ إلى السلبية ما وجدت أن السلبية هى السيل الأمين لتحقيق
غايتها ، ولا تتوانى عن اتخاذ موقف إيجابى إذا لم يكن هناك بد من هذا
الموقف ولم يكن لها محيص عنه .

وقد تمثلت سلبيتها فى موقفها من الهكسوس حين غزوا أرضها وفاقت

قوتهم قوتها وأدركت أن الاشتباك معهم في معركة سافرة سوف يعود عليها بالخسران ، فلاذت إلى أصالتها وتقاليدها ومأثوراتها تحميها من عدوان هذا الغازي الطاريء وجفت الاختلاط بهم والتعاون معهم ، وحتى يأخذ هذا الابتعاد والنفور مظهر القدامى اعتبرت الهكسوس شعباً نجساً من الرعاة لا يليق بهم أن ينزلوا إلى الاختلاط بهم أو التعامل معهم ، حتى استعادت قوتها فنفضت غبار السلبية إلى الإيجابية وقاد أحبس حرب التحرير التي انتهت بإجلاء الهكسوس عن مصر ومطاردة المصريين لهم إلى فلسطين فلم يتركهم أحبس حتى حطم قاعدتهم شاروهين وحولها خرائب وأطلالا .

ومضر من الهكسوس هي مصر من الفرس والإغريق والرومان ، تعالت عليهم جميعاً ولاذت بمأثوراتها وتقاليدها وأصالتها تحميها من هؤلاء الطارئین على اختلافهم حتى تستعيد أنفاسها وتعود إلى جولة معهم يكتب لها فيها النصر .

ولعلنا نجد في موقف مصر من أسرة محمد علي أخيراً دليلاً آخر على تلك السلبية التي تلوذ بها حتى تسترد أنفاسها وتضرب الطاغية الضربة القاضية ، فإن أسرة محمد علي لم تظهر أبداً بحب المصريين واحترامهم واستمرت النظرة إليها نظرتهم إلى الدخيل الغاصب ، ولم تر أسرة محمد علي في المصريين غير قوم غرباء عليهم فلم يقدّم ود بينها وبين المصريين ، ولولا الحراب الانجليزية التي نصرت الحديوية ضد عرابي لطوح المصريون بأسرة محمد علي منذ زمن بالرغم من أنها كانت تستمد بقاءها من انتمائها إلى الخلافة والدولة العثمانية حامية الإسلام ، والدين وقد جاءت تلك الفرصة أخيراً حين طوحت ثورة ٢٣ يولية بالأسرة الدخيلة .

ومصر في سلبيتها هي مصر في إيجابيتها صامدة لا تنهن ولا تلين حتى تستوفي الغاية من قصدها ، ولكنها حين تلجأ إلى السلبية فلأن السلبية هي الطريق السليم المأمون لتحقيق غايتها ، وقد تحملها الظروف القاهرة على انتهاج دور إيجابي إذ ليس من انتهاجه بد وسواء غلبت أو غلبت على أمرها فإن ذلك لا يوهن من أمرها ولا يحملها على الخضوع أو الاستسلام ولكنه الصمود الذي يتميز بالصبر ، ذلك الصبر الذي فسره «ويلفريد بلنت» بأنه الاستسلام وانعدام الشعور القومي حين قل عنهم : « وإينهم ليعبون ملكة انجلترا أو البابا أو ملك اشانتي بلهف متساو لو أن هؤلاء جاءوهم بنعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار قرش في الجنيه » وما هو إلا ارتقاب الفرصة المواتية وانتهابها بعد ذلك ، وهو ارتقاب لا تنسى مصر فيه ماضيها في حاضرها مهما كان هذا الحاضر براقاً أو قادراً .

وهو أيضاً الصمود الذي يتميز بالأناة ، تلك الأناة التي تتأهب للأمر في جذر وتستعد له في سكون حتى تضرب ضربتها قوية سليمة فلا تكون سبباً في إراقة كثير من الدماء كما كان من ثورة ٢٣ يولية حين فجأت العالم بانتهاء صفحة وبداية صفحة جديدة في تاريخ مصر الخالدة وكما كان من ثورة ٩ مارس ١٩١٩ حين فجأت الاحتلال البريطاني بين يوم وليلة بهبة المصريين جميعاً وفي ساعة واحدة من الاسكندرية إلى أسوان وما كان الإنجليز يظنون أن ستكون للمصريين تلك الثورة العنيفة التي قوضت أركان السياسة البريطانية في مصر .

فمصر حين تهدأ وحين تثور إنما تستلهم من أحداث ماضيها وعراقة تاريخها الحكمة حتى لا يضل بها القصد ولكنها لا تستسلم — كما يقول الميثاق — وإنما تحتزن طاقات تتحفز لإطلاقها في اللحظة المناسبة .

ثورة على البغى

« إن وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية في مواجهة هذا الارهاب المتحكم الذى تسنده قوى الاحتلال الأجنبي والمصالح الدولية الاستعمارية » .

المبتلى

حين غزا الهكسوس مصر وشهد المصريون أول احتلال أجنبي
لبلادهم ، لم ينسوا أبدا برغم مرور سنوات تجاوزت قرنا ونصف على قيام
هذا الاحتلال ، اندمج فيها الهكسوس في الحضارة المصرية وتشبهوا
بالمصريين ولقبوا أنفسهم بألقابهم وعبدوا إلهامصريا أقاموا له معبدا على
الطراز المصري ، برغم كل هذا ، لم ينس المصريون أن الهكسوس قوم
غرباء وأنهم حين اجتاحت مصر حطموا معابدها واستبدلوا أهلها ،
فكرهوهم ، ولم ينسوا أبدا أن هؤلاء الرعاة دونهم حضارة وتعدينا
وأصالة فوسموهم بالنجاسة ونأوا بأنفسهم عنهم وترفعوا عن الاختلاط بهم
وظلت النفرة في نفوسهم منهم حتى قاموا بالثورة ضدهم وأجلوهم عن البلاد
وطاردوهم إلى مواطنهم الأصلية .

وظلت تلك طبيعة المصريين من بعد ، يكرمون النازح الغريب وينزلونه
منزلة الأهل والأخوة ما جاء مسالما فإذا جاء متعاليا لم ينله منهم غير الاحتقار
والازدراء وإن دل عليهم بسلطانه واستعلى عليهم بجأه وقوته .

وقد احتل الفرس والرومان مصر زمنا فلم يغيروا من طبيعة المصريين
ما غير المصريون من طباعهم وتقاليدهم وظل المصريون متعالين على
كل حاكم غريب لا يبادلونه الحب والود حتى تواتهم الفرصة التي
تمكنهم منه فيطيحون به ويقبرونه في أرضهم .

كانت نهاية الهكسوس على أيديهم وكان أفول شمس فارس وروما
على أرضهم ، وعلى ضفاف القناة قبرت إلى الأبد هبة الامبراطورية
البريطانية عام ١٩٥٦ .

جاء الهكسوس . مصر فكان احتلالهم بعض أراضيها أول احتلال
أجنبي يقوم في وادي النيل ، وحكم الهكسوس الدلتا وامتد نفوذهم إلى
الصعيد حتى أسيوط ، أما مصر العليا فقد بقيت تحت إمرة حكام طيبة
العظام الذين قاموا بطرد الهكسوس وأسسوا الدولة الحديثة في تاريخ
مصر الفرعونية .

وتقص المدونات البردية من خبر ما كان من أمر الهكسوس مع أمراء
طيبة ، فتروي بردية كتبت في عهد الأسرة التاسعة عشرة ما كان من
استفزاز الهكسوس لهم فتقول إن « أبو فيس » ملك الهكسوس بعث
برسله إلى « سكين رع » يحمله مسئولية خوار عجل البحر التي تقطن مياه
طيبة والتي تزعج ملك الهكسوس في عاصمته « أواريس » وتطرد النوم
من عيني جلالته وأدرك « سكين رع » أن « أبو فيس » يتعرش به وأن
الحرب لا بد ناشبة فلتكن حربا لتحرير مصر .

وبدأ « سكين رع » حرب التحرير وحماتها بعده أخوه وسميه « سكين رع »
أيضا ، ويبدو من مومياء أنه قد لقي مصرعه في تلك الحرب فكان أول
شهيد مصري يجود بحياته فداء بلده . وحمل اللواء بعده ابنه « كاموزا »
ثم احموزا الذي نجح تماما في طرد الهكسوس وتحرير مصر وتأسيس
الأسرة الثامنة عشرة وبناء الامبراطورية المصرية الأولى في تاريخ مصر
وتاريخ العالم والذي نعرفه باسم « أحسن الأول » .

ويحملنا التاريخ عبر الزمن نيفا وخمسة وثلاثين قرناً فترى الانجليز يحتلون مصر بحجة حماية الأجانب وتقصف مدافعهم الاسكندرية لأن المصريين يحصنون طواحيها ، ويبقى الانجليز متعلقين بتلك الحجة ، حجة حماية الأجانب ، فيجملونها نصاً صريحاً بين أربعة بنود يعلقون عليها استقلال مصر في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، ويتعالى الأجانب على المصريين معترزين بالحماية التي أضفاها عليهم الاحتلال وضمنتها لهم الامتيازات الأجنبية وتغدو كلمة « حماية » وقاء لكل عابث من هؤلاء الأجانب يعيش على أرض مصر ويلتهب خيراتها ..

ويبقى الاحتلال البريطاني قابلاً في مصر نيفا وسبعين عاماً ، حتى يحمل عصاه ويرحل مدحوراً بعد أن عرف أن لا حياة له في البلاد في ظل الثورة الجديدة التي يقودها جمال عبد الناصر ..

وقد جاء الاحتلال بعد شق قناة السويس للملاحة إذ أدركت بريطانيا أن هذا الشريان المائي الجديد الذي يربط الشرق بالغرب هو عصب المواصلات الامبراطورية فلا بد لها أن تحتل مصر من أجل السيطرة عليه .

وإذا كانت مصر قد ظفرت بطرد المحتل فلا بد لها أن تستعيد قناتها لاغضبا للكبرياء القومي فحسب وإنما لتحقيق السيادة المصرية على كل أرض مصر فلا تبقى شركة قناة دولية في داخل الدولة تمسك بيديها أعز بقعة على البلاد ، بقعة سفع هجيرها الوجوه المصرية والسواعد التي كُلت في حفر القناة .

وكانت المفاجأة الرائعة مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، مفاجأة جمال

عبد الناصر للعالم وللدول الاستعمارية المتهاوية وهدية الرئيس إلى بلده ،
«فاجأة تأميم قناة السويس» .

وجن جنون الاستعمار فأخذ يهذى وساقه الهذيان إلى التهديد والوعيد .
حقى كان العدوان الإسرائيلي المرسوم على سيناء وجاء بعده الإنذار
البريطاني الفرنسي ، وجاءت الفرصة لتكيل مصر لبريطانيا بالكيل
الذي كالتة بريطانيا لها حين قصفت مدافع الأبطال طوابي الاسكندرية
في ١١ يولييه ١٨٨٢ تهديداً لاحتلال مصر .

وحسب الانحليز أنهم ما زالوا يعيشون في القرن التاسع عشر ولم
يدركوا أن مضر الثورية غير مصر الحديوية وأن خيانة أمثال توفيق لن
تسكرر ، وأن جمال عبد الناصر ليس غير فرد واحد من أربعة وعشرين
مليون جمال عبد الناصر .

وارتد الكيد البريطاني الفرنسي إلى نحره ، ولعل الصورة تراود
خيالنا ونحن نتصور البوارج البريطانية وهي تقصف طوابي الاسكندرية
وحدها بعد انسحاب البوارج الفرنسية على حين راحت البوارج الفرنسية
والبريطانية تضرب مدينة بورسعيد مجتمعة ، وتكتمل الصورة إذ نرى
بوارج العدوان الثلاثي تنسحب من المياه المصرية مجللة بالعار بعد أن لقها
المصريون درساً زلزل هيبة الدولتين اللتين كانتا كبيرتين ومعهما التابع
الدول إسرائيل .

كم هي رائعة تلك الصورة فقد استعادت مصر هيبتها وانتقمت
لكبريائها وكرامتها بعد نيف وسبعين عاماً من قصف الاسكندرية هذه
هي مصر حقاً في صمودها وكفاحها وصبرها على الحن والنوائب حتى تخرج ظافرة

وقد قبرت الغزاة في أرضها . ففي تلك الأرض المباركة الطهور وُئِدَ مجد
الفرس والرومان ، وفي تلك الأرض المباركة الطهور كان أقول الامبراطورية
البريطانية ونهاية المجد الامبراطوري لبريطانيا .

يالروعة الموقف بالنسبة لنا نحن الذين شهدنا عسف الامبراطورية
البريطانية وطغيانها في مصر ! نحن الذين عشنا أطفالا ننادى « يا رب
ياعزيز كبه تاخذ الانجليز » ثم صبية في المدارس الابتدائية والثانوية
وشباباً في الجامعة تترك مقاعد الدراسة وما كان أحوجنا لها وما كان
أحوجها إلينا لتتظاهر ضد الانجليز عزلاً من أى سلاح ولننادى بسقوط
بريطانيا وانهارها ، ثم تتهاوى عصي الشرطة فوق رؤوسنا ويقبض
علينا ويزج بنا في السجون ، لأننا نثور لوطننا وننادى باستقلاله وحرية .

وياللصور التي تتزاحم على خاطري وأنا أكتب هذا الكلام ، صورتنا
ونحن نتجمع أمام كوبرى عباس في طريقنا من الجامعة إلى دواوين
الوزارات للسمعهم صوتنا وليروا غضبتنا لبلادنا فينهال علينا رصاص
« الكونستبلات » الانجليز ويسقط منا شهيدنا الأول عبد الحكيم الجراحى
ثم يسقط شهيد دار العلوم عبد المجيد مرسى في شوارع النيرة ، وتشتد
ثورتنا فتوشك أن تعصف بمصر جميعاً .

ويحس الانجليز هبوب العاصفة فيجمعون زعماء الأحزاب ويبرمون
معههم باسم مصر معاهدة دعوها « معاهدة الشرف والاستقلال » ، وثوب
إلى دروسنا فنرى أن بطش الانجليز قد زاد واستشرى في ظل المعاهدة

أكثر مما كان قبها وأصبحت صداقة الإنجليز شرفاً يعتز به أولئك الذين
خدعوا مصر وتعلقوا بكراسي الحكم فأصبحوا يتملقون في سبيلها القصر
حيناً والسفارة البريطانية حيناً آخر .

وشهدنا مثلنا العليا تنهاوى واحداً بعد الآخر فمننا من انطوى على
نفسه وعلى دروبه ومننا من جرفه الضياع إلى الجرى وراء الأحزاب
فما ناله منها غير العار والتلوث إذ خرجت الأحزاب ترشو الشباب بالمال
وتعدهم بالمناصب ليهتفوا بحياتها وينادوا بسقوط منافسيها . ومننا من راح
يسحث عن مثله في حمى دعوة جديدة استهواه منها العنف فأضلته ، ومننا من
راح يستلهم ذاته العمل فجرفه التفكير إلى محاولة القتل والاغتيال .

وبينما تجري وراء مثلنا الضائعة دهمتنا الحرب العالمية الثانية وغدت
مصر معسكراً كبيراً لقوات الحلفاء وأخذت قوات المحور تدق أبوابها
للمرة بعد الأخرى .

ورأينا السفارة البريطانية تحكم وتستأثر بالأمر دون الحكومة
المصرية بحجة ظروف الحرب ورأينا أقواتنا تنهب لتسد حاجة قوات الحليفة
ورأينا عدواناً من بعض قوات الاحتلال يقع على أهلينا فرحنا تتجمع
في خلایا وأوكار الفتك بكل من تسول نفسه له العدوان على مصرى ،
ورحنا نختطف جنود الإنجليز ، وننفث غضبنا بإيذائهم والزراية بهم
واحتقارهم .

وانتهت الحرب وراح الزعماء يفاوضون الإنجليز للجلاء عن البلاد
ورأينا المأساة تتكرر من جديد فثرنا بالزعماء وثرنا بالإنجليز ومننا من جرفه
التيار إلى التنفيس عن نفسه بالانحراف إلى العنف الفكرى أو المادى .

وكانت مأساة فلسطين فكشفت الغطاء عن أعيننا وهدتنا سواء
السييل وعرقنا من يبيع البلد ، ومن يتاجر بسمعتها في سوق الحياة ،
فازدادت ثورة قومنا وعرقنا أن البغي منا وفينا ، وعلينا أن نتخلص من
الباغين قبل أن نسعى إلى هدف آخر .

ثم صحونا ذات ليلة ، وكانت ليلة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ لنستمع إلى البشير
بمحاول عهد جديد فقد كانت ثورة الجيش ، وكانت نهاية عهد
البغي والطغيان .

و ثورة للتححرر

« إن هذه التجربة أثبتت أن الشعوب المغلوبة على أمرها قادرة على الثورة ، وأكثر من ذلك أنها قادرة على الثورة الشاملة .
إن الشعب المصرى خاض خلال هذه التجربة غمار ثورات كثيرة ، تشابكت معاركها وتداخلت مراحلها ، ثم استطاع فى حقبة قصيرة من الزمان أن يقهر جميع أعداء ثوراته المتعددة وأن يخرج بقوة اندفاع متزايدة إلى مرحلة الانطلاق نحو التقدم . . . »

المبتلى

قد يقال إن ثورة عرابي قامت أصلاً لتحقيق المساواة بين الضباط المصريين والجركس وقد يقال إنها ثورة ضد التغلغل الأجنبي الذي بدأ يستشري منذ عهد اسماعيل كما يمكن أن يقال إنها ثورة دستورية قامت لتحقيق مطالب الأمة الدستورية . ولكن كل هذا لا يفي ثورة عرابي حقها من تقدير التاريخ وأصالة الحكم عند المؤرخ المنصف ، فإن أعظم ما يميز ثورة عرابي أنها حملت شعار « مصر للمصريين » .

وإذا كانت المساواة بين الضباط المصريين وأقربائهم من الجركس تحقق بعض ما تعنيه عبارة مصر للمصريين وإذا كانت الثورة على التغلغل الأجنبي قد قامت بدافع من الشعور القومي وإذا كانت المطالب الدستورية هي بعض ما ترمي إليه الأمة لتحقيق ذاتها قبل الحاكم ، فإن عبارة « مصر للمصريين » كانت أكبر مما تعنيه كل تلك المطالب والغايات مجتمعة .

إن ثورة عرابي لا تقل في عمقها وأصالتها عن الثورة الفرنسية ولا تقل في جلالها وسموها عن حركة الوحدة الإيطالية ولا في أهدافها وغاياتها عن ثورة الولايات الأفريقية للاستقلال عن التاج البريطاني ، بل إن الثورة العرابية لتفوق كل هذه الثورات جميعاً فقد كانت ثورة للتجرز وثورة في سبيل العدالة والمساواة وغدت في النهاية معركة لرد عدوان يوشك أن يطيح باستقلال البلاد السياسي بعد أن أودى باستقلالها الاقتصادي ثم إنها ثورة لتأكيد الشخصية المصرية وإبرازها بعد أن تضاءلت

في إطار الولاء للخلافة والتبعية للدولة العثمانية . كانت ثورة كشفت عن أصالة الشخصية المصرية وتماسكها وقوتها برغم المحن التي مرت بها وبرغم تواتر الغرباء على حكم مصر .

وبالرغم مما لقّيته هذه الثورة من فشل فإنها ستبقى على الزمن رمزاً ليقظة مصر الحديثة ، مصر وادي النيل لا مصر العثمانية ولا مصر الولاة أو المالك .

فمصر للمصريين تعني أكثر مما تعنيه المطالب الدستورية أو صد النقوذ الأجنبي أو المساواة بين الجركس والمصريين ، كانت تعني أن يعود حكم مصر لأبنائها بعيداً عن استبداد الأسرة الحاكمة الدخيلة وعن أي نقوذ أو سلطة أجنبية ، أما الجيش فيجب أن يكون جيشاً وطنياً يسوده العنصر المصري تماماً .

ومن المحتمل أن تعيم تلك المعاني في ذهن عرابي ، ولكن بما لا ريب فيه أن نداء « مصر للمصريين » كان بداية لتفتح تلك المعاني واستقرارها في ذهن المصريين أو على الأقل بداية تفكير المصريين في أن يكون حكم بلادهم لهم وحدهم خالصاً من كل شائبة تحرّمهم منه أو تحول بينهم وبينه . فقد انطوت مصر طويلاً في إطار الأخوة الإسلامية التي سوت بين العناصر والشعوب وتواتر الولاة العرب على مصر كما تواتروا على كل ولايات العالم الإسلامي ولم تجد مصر في ذلك غضاظة اعتزازاً منها بالعروبة والإسلام ، وحين غلب على الخلافة العباسية أقوام من الموالى ثم الترك والكرد لم يكن في ذلك خروجاً على ما ألفه المسلمون والعالم الإسلامي مادامت

أخوة الإسلام تشمل الجميع وتلف المسلمين على اختلاف شعوبهم في إطار من المحبة والعدالة والمساواة . حتى المماليك وهم من الرقيق المجلوب حين آل إليهم الحكم والسلطان لم يجد المصريون في حكمهم غضاظة لأنهم أولا قد أصبحوا مصريين خالصاء بعد أن نسوا مواطنهم الأولى ونشأوا نشأة عربية إسلامية ، وثانياً لأنهم ظلوا يدينون بالولاء للخلافة والأخوة الإسلامية العامة ، بل كانت لهم مآثر جليلة على الإسلام والمسلمين حين حملوا لواء الدفاع عنه والدود عن حياضه .

فلما جاء العثمانيون وظفروا بالخلافة وأصبح السلطان العثماني خليفة المسلمين وخاقان البرين والبحرين وحامي الحرمين الشريفين ، قبل المسلمون حكمهم برغم أن الخلافة قد انتقلت على أيديهم من العنصر العربي إلى عنصر تركي غريب على العرب والإسلام إذ لم يكن قد مر على اعتناقهم للإسلام زمن طويل ، ولكنهم حملوا لواء الإسلام واقتصموا به بقاعاً ظلت عصية على العرب حتى دانت للعثمانيين ووجدوا العالم الإسلامي من جديد وسرت على أيديهم قوة جديدة أحييت شباب الإسلام وأعادت إلى الأذهان ذكرى الفتوح الإسلامية الباهرة في صبحه الأول .

ولكن العثمانيين كانوا رجال حرب أكثر مما كانوا رجال علم وبقدر ما اتسعت رقعة الإسلام على أيديهم وبقدر ما اعتز بهم عالم الإسلام، تعطلت الحضارة العربية ووقف ركب التقدم وخبا ضياء العقل المبدع الخلاق ، فقد كان الأتراك خلوا من كل ملكة ذهنية تقتحم آفاق المعرفة والتجديد . . .

وحين كانت أوربا تستيقظ لتبني حضارتها الحديثة كان العالم الإسلامي يجمد ويتأخر ويخبو فيه ضياء المعرفة والعقل ، وأخذ الضعف يتسلل إلى قوة الدولة فأخذت تحمي نفسها بالعزلة والانطواء وتسرب الفساد إلى جهاز الحكم وغلب عليه الطابع الأوتوقراطي اللعين وقد السلطان ثقته بمن حوله ، فاغتال اخوته بل وأبناءه خوفا منهم على عرشه ، وغصت قصورهم بالدسائس وغدت الجاسوسية أداة رهية من أدوات حكم لا يستند على قوة الجماهير .

ولعل الحظ وحده هو الذي أبقى على حياة الرجل المريض فقد اختلفت أوربا على تقسيمه فاتفقت على الإبقاء عليه حتى لا يكون في استيلاء دولة على بعض أملاكه خلا لتوازن القوى بين الدول الأوربية كما كان للخلافة من الجلال والقداسة أيضا ما صان للعثمانيين ولاء المحكومين فلم تشهد الدولة العثمانية ثورات شعبية تزعزع كيانه وتهز سيادتها وما كان الخطر عليها إلا ليأتيها من جانب بعض الولايات الذين يدفعهم الطموح للاستئثار بالحكم في الولايات التي ولوا عليها .

وقد أدى ضعف السلطة المركزية في الدولة إلى ظهور محمد علي ووصوله إلى أريكة الباشوية المصرية مستعينا بالحيلة حيناً وبالغدر أحياناً حتى يقال إنه زيف إرادته المصريون بتنصيبه والياً على البلاد . وكان من الممكن ألا يكون لمحمد علي في تاريخ مصر أكثر مما كان لغيره من الولاة وليكن قدره أن يحكم مصر ويورثها أبناءه من بعده . وما من شك في أن محمد علي كان حاكماً استطاع أن ينشئ دولة حديثة

في مصر ، ولكنه برغم ذكائه أغفل أهم عنصر من عناصر قيام الدولة الحديثة وهو الاستناد إلى قوة الشعب ومشاركة الشعب له في الحكم ، فلم يرفع مصر إلا ضيقة كبيرة يملكها ويورثها أسرته وحاشيته فسخر البسواعد المصرية لتحقيق أطماعه وفي الوقت نفسه حرمهم من كل ميزة أضفاها على التركي والجركسي بل حتى على أبناء الممالك الذين فتك آبائهم من قبل .
و حين أقطع الأرض لأبنائه وحاشيته حرم منها المصريين فكانت الأبعاديات لأفراد الحاشية وكانت الشفالك لأفراد الأسرة وما بقي يحتكره هو نفسه . والأرض أعز ما يملكه المصري وهي لديه رمز للولاء والحب والوطنية والقومية ، وكما كانت الأرض كانت المناصب فأصبحت أيضا وقفا على الحاشية وأفراد الأسرة . وغدا المصري في بلده رقيقا يخضع للسخرة التي فرضها محمد علي ويسوقه الكرباج وكان أضعف ما يساق به المصري فقد كان هناك الشنق وضم الأذان والحرق وإغراق النساء والتنكيل بالأطفال لمل آبائهم قسرا على تنفيذ أوامر الحاكم .

و غلبت على المصريين كنية الفلاح أي الذي يفلح الأرض ويزرعها وغدا هذا اللفظ دليلا على المهانة والضعف والازدراء في نظر الترك والدوات كما كانت كنيتهم تميزاً لهم عن المصريين أو الفلاحين إذ لم يكن المصري إلا فلاحا .

هذا الخطأ الكبير الذي تردى فيه محمد علي بتجاهله الشعب المصري كان البذرة الأولى في نبت الثورة العرابية التي نادى بأن تكون « مصر للمصريين » .

لذلك كانت الثورة العراقية ثورة للتحرر : التحرر من رق الأرض
ومن استبداد الحاكم ، والتحرر من السخرة والكرباج ، والقضاء على كل
سيطرة غربية سواء تمثلت في الأسرة الدخيلة أو في الأجنبي الوافد الذي
أفسحت له الأسرة الدخيلة من رحابها فتوغل واستشرى .

كانت ثورة ندت بكل ما في الطبيعة المصرية من أصالة وعمق لتحرير
مصر ولإبراز الشخصية المصرية .

فإن فشلت فقد وضعت البذرة الأولى للنبت العظيم الذي أነع وأثمر
ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعجب الثمر .

وثورة للبناء والتقدم

« إن إرادة الثورة في تلك الظروف الحافلة لم تكن تملك من دليل للعمل غير المبادئ الستة المشهورة التي نحتتها إرادة الثورة من مطالب النضال الشعبي واحتياجاته » .

ولقد كان مجرد إعلانها في حد ذاته في جو المصاعب والخطر والظلام دليلاً على صلابة إرادة التغيير الثوري وعنادها الذي لا يلين .

١ — في مواجهة جيوش الاحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس كان المبدأ الأول هو « القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين »

٢ — في مواجهة تحكم الاقطاع الذي يستبد بالأرض ومن عليها كان المبدأ الثاني هو « القضاء على الاقطاع » .

٣ — في مواجهة تسخير موارد الثروة لخدمة مصالح مجموعة من الرأسماليين كان المبدأ الثالث هو « القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم » .

٤ — في مواجهة الاستغلال والاستبداد الذي كان نتيجة مختمة لهذا كله كان المبدأ الرابع هو « إقامة عدالة اجتماعية » .

٥ — فى مواجهة المؤامرات لإضعاف الجيش واستخدام ما تبقى من قوته
لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزة للثورة ، كان الهدف الخامس هو
(إقامة جيش وطنى قوى) .

٦ — فى مواجهة التزييف السياسى الذى حاول أن يطمس معالم الحقيقة
الوطنية كان الهدف السادس هو (إقامة حياة ديمقراطية سليمة) .

المبتدأ

فشلت ثورة سنة ١٩١٩ في أن تحقق الغاية التي من أجلها قامت الثورة ، ويذكر الميثاق ثلاثة أسباب واضحة أدت إلى فشلها وهي :
أولا : إن القيادات الثورية أغفلت إغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعي على أن تبرير ذلك واضح في طبيعة المرحلة التاريخية التي جعلت من طبقة ملاك الأراضي أساساً للأحزاب السياسية التي تصدت لقيادة الثورة .

ومع أن اندفاع الشعب إلى الثورة كان واضحاً في مفهومه الاجتماعي إلا أن قيادات الثورة لم تنتبه لذلك بوعي حتى لقد ساد تحليل خاطيء في هذا الطرف رددته بعض المؤرخين مؤذاه أن الشعب المصري ينفرد عن بقية شعوب العالم بأنه لا يثور إلا في حالة الرخاء ، ولقد استدلوا على ذلك بأن الثورة وقعت في ظروف الرخاء الذي صاحب ارتفاع أسعار القطن عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وذلك استدلال سطحي فإن هذا الرخاء كان محصوراً في طبقة ملاك الأراضي وطبقة التجار والمصدرين الأجانب الذين استفادوا من ارتفاع الأسعار ، وبذلك زاد التناقض بينهم وبين الكادحين من الفلاحين الذين كانوا يروون حقول القطن بعرقهم ودمائهم دون أن تتغير أحوالهم بارتفاع أسعاره . وكان هذا الحرمان في القاعدة يتناقضه مع الرخاء في القمة من أسباب الاحتكاك الذي أشعل شرارة الثورة .

إن المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها . لكن القيادات التي
تصدت في مقدمة الموجة الثورية سنة ١٩١٩ بإغفالها الجوانب الاجتماعية
من حركات الانفجار الثوري لم تستطع أن تبين بوضوح أن الثورة
لا تحقق غاياتها بالنسبة للشعب إلا إذا مدت اندفاعها إلى ما بعد المواجهة
السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال ووصلت إلى أعماق المشكلة
الاقتصادية الاجتماعية .

ولقد كانت الدعوة إلى تمصير بعض أوجه النشاط المالي هي قصارى
الجهد في ذلك الوقت ، في حين أن الدعوة إلى إعادة توزيع الثروة
الوطنية أصلاً وأساساً كانت هي المطلب الحيوى الذى يتحتم البدء فيه من
غير تأخير أو إبطاء .

ثانياً : إن القيادات الثورية في ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها
عبر سيناء وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ، ولم تستطع أن تستشعر
من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية
وبين القومية العربية .

لقد فشلت هذه القيادات في أن تتعلم من التاريخ ، وفشلت أيضاً
في أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه والذي كان يعامل الأمة العربية
كلها على اختلاف شعوبها طبقاً لمخطط واحد .

ومن هنا فإن قيادات الثورة لم تنبئه إلى خطورة وعد يلفور الذى
أنشأ إسرائيل لتكون فاصلاً يمزق امتداد الأرض العربية وقاعدة
تهديداتها .

وبهذا الفشل فإن النضال العربي في ساعة من أخطر ساعات
الأزمة حرم من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية
من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال بمقتة الجهد .

واختصت إدارة الهند البريطانية بالتعامل مع شبه الجزيرة العربية
ومع العراق .

وانفردت فرنسا بسوريا ولبنان .

بل وصل الهوان بالأمة العربية في ذلك الوقت إلى حد أن جواسيس
الاستعمار تصدروا قيادة حركات ثورية عربية ، وكانت بأمرهم ومشورتهم
تقام العروش للذين خانوا النضال العربي وانحرفوا عن أهدافه .

كل هذا والثورة الوطنية في مصر تتصور أن هذه الأحداث
لا تعنيها ، وأنها لا ترتبط بمصيرها بكل هذه التطورات الخطيرة .

ثالثا : إن القيادات الثورية لم تستطع أن تلتأم بين أساليب نضالها
وبين الأساليب التي واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب في ذلك الوقت .
إن الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب
اشتعالا . ومن ثم انتقل من السيف إلى الخديعة وقدم تنازلات شكلية
لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقي ، وكان
منطق الأوضاع الطبقيّة يزين لها هذا الخلط .

إن الاستعمار في هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسميه وسلب
مضمونه ، ومنع من الحرية شعارها واغتصب حقيقتها .

وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال .

وزادت المضاعفات خطورة بسبب الحكم الذاتي الذي منحه الاستعمار والذي أوقع الوطن باسم الدستور في محنة الخلاف على الغنائم دون نصر .

وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبي في مصر ملهامة تشغل الناس وتحرق الطاقة الثورية في هباء لا نتيجة له .

وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ التي عقدت بين مصر وبريطانيا ، والتي اشتركت في توقيعها جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية العاملة في ذلك الوقت بمثابة صك الاستسلام للخديعة الكبرى التي وقعت فيها ثورة ١٩١٩ فقد كانت مقدمتها تنص على استقلال مصر على حين صلبها في كل عبارة من عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى

هذه هي الأسباب العميقة التي تكمن وراء فشل ثورة ١٩١٩ وأدت إلى انتكاسها .

ويشرح الميثاق مظاهر الانتكاس في الفترة التي جاءت بعد الثورة فيقول « إن هذه الفترة كانت قادرة ، لولا صلابة الشعب ومعدنه الأصيل أن تحمل البلاد إلى حالة من اليأس تنحق كل حوافز الرغبة في التغيير أو تلحق بها الشلل الذي يمنعها من الحركة »

فهناك مثلاً القيادات الباقية من ذكريات الثورة، وكيف اغتالها الانحراف فأسلمت زمامها إلى كبار الملاك الذين أصبحوا دعامة التنظيمات

الحزبية التي جرت البلاد إلى الفساد السياسي وضاعفت من ضغط الأوصار الاجتماعية .

وقد انتهى المطاف بتلك الأحزاب — كما يقول الميثاق — إلى الارتواء في أحضان القصر تارة وفي أحضان الاستعمار تارة أخرى ، وكان القصر والاستعمار في الجانب « المعادي لمصالح الشعب ... والمضاد لاتجاه التقدم » فقد كانت « سلطة الشعب خطراً على أوضاعهما الدخيلة » .

ثم كانت تلك الديمقراطية الزائفة التي أصبح الشعب فيها « أداة في يد السلطة أو بمعنى أصح ضحية لها » فلم تعد « أصوات الجماهير هي التي تقرر خط السير الوطني ... وإنما أصبحت أصوات الجماهير تساق وفقاً لإرادة السلطات الحاكمة » ومن يلوذ بها فإن الذي « يحتكر رزق الفلاحين والعمال ويسيطر عليه » يستطيع تبعاً لذلك أن « يحتكر أصواتهم وأن يسيطر عليهم ويملي إرادته » ولم يقف الأمر عند ذلك بل أصبحت الحياة النيابية لعبة في يد القصر يقيها ما رضى عنها ويتخلص منها ما غضب عليها ، وأصبح الدستور « قصاصة ورق » وققدت القيادات الشعبية قدرتها واثابها الضعف فركعت على أعتاب القصر تارة وعلى أعتاب الاستعمار تارة أخرى « تلتبس الرضا الذي يصل بها إلى مقاعد الحكم » وبهذا حكمت « على نفسها بالدبول ... وبالموت » ..

وفي تلك الفترة — فترة الانتكاسة — انتزعت قطعة من الأرض الغرية لتمنح دون « سند من الطبيعة أو التاريخ لحركة عنصرية عذوانية أرادها المستعمر لتكون موطئاً في يده يلهب به ظهر المنضال العربي إذا

استطاع يوما أن يتخلص من المهانة وأن يخرج من الأزمة ، كما أرادها
للمستعمر فاصلا يعوق امتداد الأرض العربية ويحجز المشرق عن المغرب «
...» ثم أرادها عملية امتصاص مستمرة للجهد الدائى للأمة العربية
تشتغلها عن حركة البناء الإيجابى »

ولكن هذا كله كان حافزا على قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، فقد
بدأ الشعب المصرى « يتأهب لاستئناف دوره التاريخى حتى قبل أن تنتهى
الحرب العالمية الثانية وقبل أن تنزاح الأشباح الكثيرة لدايات الاحتلال
عن لمدنه الكبرى » .

قد رفض الشعب أن يشترك فى الحرب الاستعمارية التى وقع فيها
الاستعمار الأوروبى برغم « كل الشعارات التى رفعها المتحاربون أعلاما
فوق رؤوسهم ليخدعوا بها الشعب »

وعمت الشباب المصرى موجة من السخط والغضب على كل الذين
مدوا أيديهم للاحتلال وقبلوا وجوده « فتددت أصداء القنابل وطلقات
الزصاص وعمت موجة الاغتيالات السياسية وكثرت التنظيمات السرية
بمختلف اتجاهاتها وأساليبها

وامتدنت موجة الغضب إلى الجماهير التى وقعت بعيدا عن مسرح
النضال ، فثار الفلاحون على عبودية الأرض التى فرضها عليهم الاقطاع
فى جهات عديدة .

وانتفا غضب الجماهير فى خريق القبايل « ومنهم ما يكون وراء قيادات
الخريق من تدبير لا يمكن إطفاءه . ولكن ثورة السخط الشعبى والادته

اشتعالاً» . . . فإن « شرارة الغضب أشعلت من الحرائق في القاهرة أكثر
مما أشعلت يد التدبير الخفية التي بدأت عملية الحريق .
ثم كانت ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ حين أخذ الجيش مكانه الحقيقي
تحت قيادة الشعب وفي خدمة أمانيه .
وكانت بداية عهد جديد في تاريخ مصر .
وكانت ثورة للبناء والتقدم .

تم بحمد الله

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	مصر والثورة
١٣	صبر وصمود
٢١	ثورة علي البغي
٣١	وثورة للتحرر
٣٩	وثورة للبناء والتقدم

لجنة اختيارنا للطلال

احمد خاكي : رئيس اللجنة

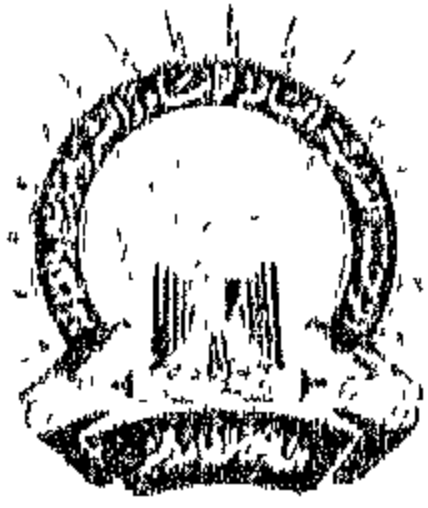
محمد عطا : مقرر اللجنة

محمود محمود

الدكتور حسين النجار

علي الجمبلاطي

أعضاء



مطابع الازار القومية

١٥٧ شارع عسكيد - روض الفرج

٤١٠١٢ ٤٠٧٥٣
٤٠٨١٩ ٤٠٨١٩

التمن ٤ قروش

العدد ٩٥